

سيدجموند فرويد العالم النفساني الكبير

للأستاذ صديق شيبوب

- ٤ -

—*—*—

تعتبر الفريزة الجنسية أساساً لنظريات « فرويد » في علم النفس وقد كان أول من تجرأ على القول بأنها أم للقوى للفعالة في النفس

كانت الأجيال المتتابة تمر بمدى انفعالات النفس بتأثير الفريزة ، ولكنها كانت تضرب صفحاً عن ذكرها أو الإشارة إليها مراعاة للقوانين والأخلاق . وقد ساعدت الديانات الحكومات ، على اختلاف أنواعها وأشكالها ، على ضبط جماح الفرائز الأولية فلم يشذ من هذا الإجماع إلا القليل

حاربت النصرانية شهوات الجسم بشهوات العقل والروح ، وجعلت من تحقيق رغبات هذه للشهوات الأخيرة مثلاً أعلى في الحياة ، وأوجدت وسائل تختلف تسوة وليناً للتغلب على الفريزة الجنسية ، وكان بعض هذه الوسائل جسمياً وبعضها الآخر عقلياً ، وهو حل قائم على العقل والمنطق ، لأن الأخلاق برزت في شكل مادي قائم على فكرة تتصل بما وراء السادة . على أن هذا الحل ظهر غير فعال تماماً لأنه لم يشف الإنسانية من الفريزة الجنسية ولم يحل دون بروزها مسيطرة على الجسم والنفس معاً

أما للشرائع الوضعية فقد اختلفت عن الشرائع السماوية بأنها لم تحم على الفرد أن يخضع للأخلاق في نفسه وضميره بل أقرت المجتمع على مظاهر أخلاقية متواضع عليها ولم تطالب الفرد بمراعاة الأخلاق إلا في المظهر فقط

أما القرن التاسع عشر ، وهو عصر الاكتشافات الخطيرة والاختراعات الهامة والمذاهب المستحدثة التي غيرت مجرى العقل والدوق في شتى أنواع الفنون ومختلف أساليب الفلسفة والعلم ، فقد حارب الفريزة الجنسية بطريقة سليمة لأن كبار مفكره

نواطوا على إهمالها وإغفال ذكرها أو الإشارة إليها ، فلم يؤيدوا وجودها ولم ينفوه ولم يبحثوا في أثرها لم يقتصر هذا الإجماع على العلماء المفكرين بل تناول الأطباء الذين أبا توجيه بحوثهم شطرها في معالجة مرضاهم واكتفوا بمعالجة الأمراض للمصيبة بالوسائل الطبية المعروفة لديهم أو بإرسال مرضاهم إلى مستشفى الأمراض العقلية

على أنه عند ما أشرف القرن التاسع عشر على الزوال قام للطبيب الشاب « فرويد » يتحدث عن كبت الفريزة الجنسية وإمكان شفاء الأمراض المصيبة ، ممتدداً في ذلك على الأبحاث التي أجراها في داء المستيريا ؛ وأخذ يقرر أن أكثر الأمراض المصيبة - إن لم يكن كلها - ناتج عن ذلك كبت . فتأثر به أسانذة الجامعة ، ونصحها أصدقاؤه بأن يتحول عن هذه الأبحاث التي لا ترجى فائدة منها والتي تتناول مسألة دقيقة من الخير أن تظل على السكبان

على أن « فرويد » تجاوز عن هذا النصح وسار في أبحاثه إلى أقصى حد ؛ فاصطدم بمعارضيه واحتدم الجدل بين الفريقين الذين تتمثل فيهما طريقتان متباينتان لا سبيل إلى التوفيق بينهما ؛ يتمثل في إحداها علم النفس في أسلوبه القديم بحده مثل أعلى قائم على تغلب العقل على الفريزة في الفرد المتمدين المثقف ، ويتمثل في الفريق الآخر فكرة مستحدثة تقرر أن للفرائز لا تقهر ، وأنه من اللبث أن نفرض أنها إذا كبح جماحها اندحرت واختفت إلى غير رجعة ، لأن أقصى ما نستطيعه إزالتها من العقل الواعي وكتبها في غير الواعي ؛ فإذا تجسست في أعماق النفس اختمرت وأحدثت قلقاً واضطراباً في الأعصاب لا يلبث أن يتحول إلى داء عضال !

يقول فرويد : إن للشهوة بمنها العام أول نسمة يتنفسها الفرد في حياته النفسية ، فهي للنفس كالطعام للجسم ، والنفس تصبو أبدأ للوصول إلى اللذة ، وهو ما يسميه « ليبدو » الذي أطلق عليه بعض كتابنا لفظة « الليد » ، ومعناها اللطموح إلى اللذة رغم كل المقبات ، وهو طموح يلى على الإنسان كل أعماله ولم تكن غاية (الليد) واضحة حتى اكتشف فرويد أن معناه

من دراساته إلى أن الاضطراب النفسى ينتج عامة عن تجارب شخصية تناسلية ، وأنت ما نسميه طبيعة ووراثته ليس سوى حوادث جرت في الأجيال السابقة وأثرت في الأعصاب . وهكذا وجد أن كل حادث - في نظر علم تحليل النفس - عامل حاسم في تكوين النفس ، وقرر أنه يجب بحث ماضى كل فرد للوصول إلى فهم حياته ، وأن المال للنفسية والمصيبة فردية لا وجه للشبه بينها وبين أمثالها في شخص آخر غير المصاب بها

وقد تفرعت عن هذه الأبحاث نظريات عدة في شدوذ الأخلاق وتفصيله إلى مراتب ودرجات يضيئ مجال البحث دون استيعابها

وجلة القول أنه يتضح من مذهب « فرويد » أن كل شهوات للنفس الأمانة بالسوء ، ونوازعها التي حاربها الإنسانية بشق الأسلحة الأخلاقية والثقافية لا تزال أصيلة في النفس ، وأنها نحمل في دننا غرائز عصور الممجبة الأولى حين لم يكن للقوانين والأخلاق وجود ، وأتينا مهما بذلنا من جهد في سبيل إبعاد للغرائز عن ميدان عمل للعقل الواعى ، فإن هذا العقل لا يستطيع أن يتخلص منها تماماً

ولا غرابة إذا أكثر نقاد هذه النظرية «المادية للمدنية» كما قالوا ، لأنها أقامت الغريزة الجنسية أساساً لسائر نواحي الحياة ، وجعلت اللبىد قوة لا تقهر

يقول « ستيفان زويج » في كتابه القيم عن « فرويد » وهو الكتاب الذى اعتمداً عليه في أكثر فصول هذا البحث : إن « فرويد » لم يقل إن نظريته عامة وإن اللبىد أو الغريزة الجنسية هما العاملان الوحيدان اللذان يحركان الفرد وعليان عليه أعماله ومآتبه بل إنه قرر أن هناك غرائز أخرى تستولى على الفرد وتعمل في عقله الباطن مثل غريزة الموت وغريزة الذات ولكنه يؤخذ على « فرويد » أنه لم يسهب في شرح نظرية الغرائز الأخرى

كما فعل في شرح غريزة اللذة ، فجاءت مبهمه قلقة

ولا شك أن النقد الذى وجه إلى « فرويد » صحيح من حيث أنه بوا غريزة اللذة مقاماً أسمى مما يجب وأبرزها كقوة لا تقهر وحط من قدر المدنية والشرائع ومقدرتها على محاربتها

(لبحث صلة)

صديقه شيرج

التفريج عن الغريزة الجنسية . على أنه قرر بعد ذلك أن لقوى النفسية تتحول عن مراكزها ، وأن اللبىد لا يقتصر على الصلات الجنسية ، لأنه يمثل قوة هوجاء تطلب الظهور والبروز ، كوتر القوس المشدود المستمد أبداً لإنفاذ السهم ، أو السيل الجارف الذى لا يدري أين مصبه . فقد يظهر اللبىد في الصلات الطبيعية ، وقد يتحرر من قيود الجسم فينسى إلى النفس ويظهر في مناطق رفيعة كالقانون الرفيعة أو الدين أو الفلسفة . وقد يصدف عن هذه الناية أو تلك فينهي في مجاهل العالم أو يتركز في أشياء غريبة أثرت في غريزة الفرد منذ صباه ، وقد ينحط إلى أسفل دركات الهيمه وقد يرق إلى أسنى الغايات . وهكذا تختلف أشكال اللبىد ومظاهره ، ولكن غايته تظل واحدة ترى إلى رى صدا للنفس الطاموحة إلى اللذة ، وهي غابة أصيلة فيه عالقة به هنا يظهر التجديد في الآراء التى أقرها فرويد

كان علم النفس من قبله يجهل أن قوى النفس تتبدل وأن مراكزها تتحول ، وكان يخلط بين المسائل الجنسية وبين أعضاء جسم الإنسان ، ففصل فرويد بين هذه وتلك ودل على تحول مراكز قوى النفس

وكان علماء التحليل النفسى يقررون أن المسائل الجنسية التى تسبب اضطراباً في الأعصاب ترجع إلى عهد قديم ، وقد كان من الطبيعى أن يبحث عن هذه المسائل صمداً في حياة الإنسان إلى سن المراهقة ، ولكن فرويد اهتدى إلى أن من الخير ألا يقف البحث عند هذا الطور من حياة الإنسان ، بل يتمناه إلى الطفولة وقد برهن فرويد على أن اللبىد أصيل في نفس الطفل بالرغم من أنه يجهل الحياة التناسلية ، ثم ذهب إلى أبعد من ذلك قرر أنه إذا كان للطفل حياة تناسلية فإن هذه الحياة لا تستطيع أن تكون قوومة ، بل إنها خبيثة ، ولكنها تعمل في الذات غير الواعية بحيث يرضع الطفل كل اللذة من أئداء العالم

ثم تدرج فرويد في دراسة الفرد من الطفولة إلى المراهقة إلى الرجولة ، فلاحظ أن حفظ الجنس يدفع الأفراد إلى مجرى طبيعى إذا سارت حياتهم على وتيرة متساوقة . أما إذا اعتورتها حالات خاصة ظهر للشذوذ الخلقى والتناسلى

وقد درس بعض هذا الشذوذ في حياة مشاهير الرجال فانتفى